

أحياء النحو

الأستاذ عبد المتعال الصعیدی

لا شك في أن نحونا العربي أصبح علماً جافاً يورث النظر فيه السأم والملل . ولا يسعني مع هذا أن أنكر تلك الجهود الموققة التي بذلها الأستاذ الجليل على الجارم في تسهيل النحو وتجميله في كتاب (النحو الواضح) فصارت به دروس النحو الأولى سهلة مقبولة لدى الناشئين ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وتقرن العلم بالعمل قرناً موفقاً ، ولكن نحونا العالي لا يزال في الحالة السيئة التي وصل إليها من يوم أن أخذ من أحضان علم الأدب الذي نشأ النحو في ظله ، وترعرع في أرضه الخصبة .

وكان الامام علي بن عيسى الرمانى أول من انتزع النحو من حصنه بين الأدب وعلومه ؛ وقد ولد الرمانى سنة ٢٧٦ هـ وأخذ عن الزجاج ، وابن السراج ، وابن دريد ، ثم برع في علم النحو حتى قال أبو حيان التوحيدى : لم ير مثله قط علماً بالنحو ، وغزارة بالكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحاً للشكل ، مع تأله وتنزه . ودين وفصاحة ، وعفاف ونظافة ، وكان يمزج النحو بالمنطق ، حتى قال الفارسي إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معناه شيء . وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء . قلت : النحو ما يقوله الفارسي ، ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق ، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر ، لم يعد فيها شيء من ذلك .

على أن النحو لم يزل يبعد عن الأدب بعد الرمانى شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح العالم بالنحو لا يدرى شيئاً من الأدب ، ولا يستطيع أن يقوم لسانه أو قلبه إذا نطق أو كتب ، وحتى أصبحت بعض الشواهد النحوية تروى مغلوطة وتمضى عليها أزمان طويلة فلا يتنبه إلى غلطها ، ولا يعرف مع هذا قائلها ، وليس هذا إلا من فصل النحو عن الأدب ، والعناية بحفظ قواعده ونكاتها الفلسفية ، وإهمال صبغته الأدبية التي كانت تراعى في عهد ازدهاره .

وإني أسوق من ذلك هذا الشاهد الذي يذكر في باب التوكيد لكنه شاقه أن قيل ذا رجبُ ياليت عدة حول كله رجبُ برفع كلمة (رجب) في آخر البيت ، فهذا الشاهد لا يعرفون قائله إلى الآن ، وهم مخطئون في رفع كلمة (رجب) في آخر البيت لأنها من قصيدة رويها على النصب لا على الرفع . وقد جاء في كتاب الكامل للبهره وشرحه رغبة الأمل للشيخ المرصفي (ص ٢١٤ ج ٧) أن عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي كان يوم بالناس في مسجد الأحزاب بالمدينة ، فلما وليها الحسن بن زيد منعه أن يؤم الناس في هذا المسجد ، فقال له : أصلح الله الأمير ، لم منعني مقامى ومقام آبائى وأجدادى من قبلى ؟ قال : ما منعك منه إلا يوم الأربعاء ، يريد قوله :

يا للرجال ليوم الأربعاء أمّا

ينفك يحدث لى بعد النهى طرباً

إذ لا يزال غزال فيه يفتنى

يأتى إلى مسجد الأحزاب مُنتقياً

يُخبر الناس أن الأجر همته وما أنى طالباً للأجر محتسباً

لو كان يطلب أجراً ما أنى مظهرأ مُعتمناً بفيت المسك محتسباً

لكنه شاقه أن قيل ذا رجب ياليت عدة حول كله رجباً

فإن فيه لمن يبغي فواضله فضلا وللطالب المرتاد ما طلباً

كم حرّة دُرّة قد كنت ألفها تسد من دونها الأبواب والحجبا

قد ساغ فيه لها مشى النهار كما ساغ الشراب لعطشان إذا شربا

يقال شهر عظيم الحق في سنة يهوى له كل مكروب إذا كربا

فاخرجن فيه ولا ترهبن ذاك كذب

قد أبطل الله فيه قول من كذباً

وكانت ولاية الحسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب

المدينة سنة ١٦٠ هـ في عهد أبي جعفر المنصور ثاني ملوك العباسيين

فأحياء النحو عندي بأن تعادله صبغته الأدبية التي كانت له

وليس إحياءه بتطوير الكلام في أن الفتحة ليست علامة إعراب

كما قرأته في بعض الكتب الحديثة ، فإن هذا مما يزيد فيه الطين

بلة ، ولا يؤدي بنا إلى الإصلاح المنشود له

عبد المتعال الصعیدی